يوافق الحق والعدل، من جهة، وسبب لاضرار عميقة مادية وادبية تلحق بالسكان، من جهة أخرى»[٢٥]. ورأت الجمعية الاسلامية ـ المسيحية في حيفا أن فلسطين اذا سلخت عن سوريا قل عددها وكثر عدد اليهود واصبحت لهم الاكثرية في كل شيء، وذلك في وقت «نحن لسنا بقادرين عليهم مع كثرتنا وقلتهم، فكيف بنا اذا صارت لهم الاكثرية وهم أكثر منا مالاً وأرقى علماً»[٢٦]؛ في حين أظهر احتجاج وقّعته الجمعيات الاسلامية المسيحية كلها، في ذلك الوقت، «ان فصل فلسطين عن سوريا يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية وبمصالح الوطنيين القومية والمحلية»[٢٧].

الّا ان المتتبع لمواقف النخبة من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية، في ذلك الوقت، سيلاحظ ان اصرار بريطانيا على تثبيت وجودها في فلسطين، وفرض انتدابها على البلاد، وموافقتها على مصير منفصل لسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وبحثها عن مصير منفصل، أيضاً، للاردن، لم تلبث ان أكدت اليأس العربي من امكان قيام الدولة الواحدة، وأصبح هذا اليأس شبه شامل حين سقطت مملكة فيصل العربية قصيرة العمر في دمشق. وقد أسهم هذا في تخفيف الاهتمام بمسألة وحدة البلاد السورية واحلال مواجهة كل بلد من بلدانها، على حدة، للاستعمار الحالّ به في المقام الاول من الاهتمام. وفي اواخر العام ١٩٢٠، انعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث، وكانت مسألة الانتداب البريطاني على فلسطين قد تقررت بين الحلفاء الغربيين، كما كانت مملكة فيصل في دمشق قد انهارت، فجاءت قرارات هذا المؤتمر خلواً من الاشارة الى وحدة سوريا؛ بل ان المؤتمر بدا ميالاً الى التعامل مع فصل فلسطين عن سوريا كامر واقع حين طلب تقرير منه، موجه الى المندوب السامي البريطاني، تشكيل حكومة وطنية في فلسطين «مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخب اعضاءه الشعب المتكلم باللغة العربية القاطن في فلسطين حتى اول الحرب»[٢٨]. والملاحظة ذاتها تنطبق على الاحتجاج الذي بعث به المؤتمر ضد وعد بلفور الى حكومة بريطانيا وبرلمانها. فالاحتجاج لم يشر الى وحدة البلاد السورية. وحين تطرق هذا الاحتجاج الى الحديث عن الوعود التي قطعتها بريطانيا للحركة العربية القومية، لم يذكر انها تضمنت وعداً بدعم وحدة البلاد العربية، بل اكتفى باشارة عامة حين تحدث عن وعد بلفور، فوصفه بأنه «عبث بالعهود التي قطعها الحلفاء بينهم بتحرير الشعوب الخارجة عن تركيا»[٢٩]. وتخلو محاضر الجلسات التسع التي عقدها المؤتمر، وتداول خلالها في كل ما يهم المؤتمرين، من أي شيء يظهر أن موضوع فصل فلسطين عن سوريا كان قيد الاهتمام[٣٠]. ولا يعني هذا كله ان المسألة قد طويت وانتهى الامر؛ اذ ان اشارات سترد حول خطورة فصل فلسطين عن سوريا، بين وقت وآخر، في ادبيات الحركة الوطنية الفلسطينية وانشطتها بعد ذلك. غير ان المسألة، على ما يبدو، كانت، مع نهاية ١٩٢٠ وفشل تجربة اقامة المملكة العربية في دمشق، قد ضؤل وزنها في مجال الاهتمام العام، فيما انصرفت البلاد الى مواجهة مصيرها المنفصل الذي يهدده خطر المشروع الصهيوني والالتزام البريطاني به.

المساومة على انتداب بدون وعد بلفور

وعندما عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع، في حزيران (يونيو) ١٩٢١، كانت معالم حركة وطنية فلسطينية منفصلة عن شقيقتها السورية، بدأت تتشكل في البلاد؛ وكانت المشاغل الخاصة بفلسطين غدت هي التي تستحوذ على اهتمام هذه الحركة. وبين انجازات المؤتمر الرابع تشكيل وفد يضم ثمانية من ابرز قادة الحركة الوطنية الفلسطينية، وتكليفه بالسفر الى اوروبا. وقد اوكل المؤتمر لاعضاء الوفد «الصلاحية... بأن يقوموا بجميع الاعمال التي تعود على مصالح البلاد الاجتماعية